

٦٦ الاستجابة لآيات الله وحسن استقبالها

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله قال :

((قَالَ اللهُ تَعَالَى :

أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

مَنْ أَقْرَّ لِي بِالتَّوْحِيدِ دَخَلَ حَصْنِي

وَمَنْ دَخَلَ حَصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي)) (١)

يقول الحق سبحانه عن صنف من عباده أنهم ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا

بِقَائِنِ رَبِّهِمْ لَمْ يَسْخَرُوا عَلَيْهَا صُماً وَعُمِيَاناً ﴾ [الفرقان] ، فهذه الصفة

تتعلق باستقبال عباد الله المؤمنين لآيات الله وتوحيد الله والذي به يستحقون

الدخول في حصن الله سبحانه ، فهم حين يُذَكَّرُونَ بها لا يخرؤن عليها صُماً

وعُمِيَاناً ، إنما يخرؤن وهم مُبَدُونَ تَمَامَ السَّمْعِ ، ومُبْصِرُونَ تَمَامَ البَصِيرَةِ .

وقد أعطانا الحق سبحانه أمثلة حيّة من موكب الأنبياء والمرسلين ،

وممنّ هداهم الله واجتباهم للإيمان به سبحانه ، فقال :

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال (١ / ١٢٧) ، وأورده صاحب الإتحافات (٥٤)

وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٤ / ٤٠٥١) .

﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ وَأَذْكُرُ فِي

الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٢١٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٢١٧﴾ ﴿ [مريم]

ثم قال سبحانه مشيراً إليهم : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ

النَّبِيِّينَ مِمَّنْ دُرِّيَّةٌ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن دُرِّيَّةٍ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ

هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءآيَاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٢١٨﴾ ﴿

[مريم]

فهم إذا تليت آيات الرحمن خروا وسقطوا بوجوههم سريعاً إلى

الأرض ، وهذا انفعال قسرى طبيعى ، لا دخل للعقل فيه ولا التفكير ، فهو

ليس مجرد سجود ، بل سقوط سريع عفوى .

وقد وصف الله هؤلاء فى آية أخرى بأنهم (الذين أوتوا العلم) فى

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ

[الإسراء]

لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿٢١٧﴾ ﴿

فكلمة (يخرنون) توحى بأنهم يسارعون إلى السجود ، وكأنها عملية

انفعالية غير إرادية ، ليس لهم فيها تصرف ، فبمجرد سماع القرآن يرتمون

على الأرض ساجدين ؛ لأنهم تفاعلوا معه ، واختتم الإيمان فى نفوسهم ،

ليس ذلك فقط ، بل ويخرنون للأذقان سجداً ، ومعلوم أن السجود يكون على

الجبهة، أما هؤلاء فيسجدون بالوجه كله ، وهذا دليلٌ على الخضوع والاستسلام لله تعالى .

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء]

أي : يقولون حال سجودهم : سبحان ربنا الذي وفى بوعده في التوراة والإنجيل ، وبعث الرسول الخاتم ومعه القرآن ، سبحانه حَقَّقَ لنا وَعْدَهُ وأدركناه وأمنَّا به ، وكان هذه نعمة يحمدون الله عليها .

ثم يؤكد الحق سبحانه أمر الخورر للأذقان واصفاً بكاءهم وخشوعهم ، فيقول تعالى : ﴿ وَخَيْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء]

لقد خرُّوا ساجدين لله تعالى قبل ذلك ؛ لأنهم أدركوا القرآن الذى نزل على محمد ، وتحقَّق لهم وعدُّ الله فعاصروه وآمنوا به ، أما هذه المرة فيخرُّون ساجدين لما سمعوا القرآن تفصيلاً ، وانفعلوا به ، فيكون له انفعال آخر ؛ لذلك يزيد هنا الخشوع والخضوع ، فيقول : ﴿ وَخَيْرُونَ لِلأَذْقَانِ

يَبْكُونَ .. ﴾ [الإسراء] ، فكلما قرأوا آيةً ازدادوا بها خشوعاً وخضوعاً .

والحق سبحانه يعطينا وصفاً آخر غير الخورر والسجود ، بل يصف قشعريرة الجلود وخفقان القلوب لآيات الله سبحانه ، فيقول تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ

تَلِينَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ۝ ﴿٣٦﴾ [الزمر]

فلماذا يُؤثر الانفعال بالقرآن في كل هذه الحواس والأعضاء من جسم الإنسان؟ قالوا: لأن الذي خلق التكوين الإنساني هو الذي يتكلم، والخالق سبحانه حينما يتكلم وحينما تفهم عنه وتعي، فإنه سبحانه لا يخاطب عقلك فقط، بل يخاطب كل ذرة من ذرات تكوينك، لذلك تَحَرُّ الأَعْضَاءُ ساجدةً، وتدمع العيون، وتتشعر الجلود، وتلين القلوب، كيف لا، والمتكلم هو الله؟ وهكذا نرى أن الجلود تتشعر خشيةً وخوفاً من وعيد الله سبحانه، وإجلالاً لكلمات الله سبحانه، ومن بعد ذلك تأتي الرحمة، وحينها لا تلين الجلود فقط، ولكن لا بد أن تلين القلوب؛ لأنها هي التي تعطى لللمحة الإيمانية لكل جوارح الجسد.

والحق سبحانه يُبَيِّنُ أن المؤمنين هم: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ

قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ۝ ﴿٣٧﴾ [الأنفال]

وَالْوَجَلُ هو الخوف في فزع ينشأ منه قشعريرة واضطراب في القلب، وقد يقول قائل: إذا كان ذكر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل، ألا يتنافى مع قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ

بِذِكْرِ اللَّهِ ۝ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝ ﴿٣٨﴾ [الرعد] ؟

نقول: في الحقيقة لا يوجد تعارض بين القولين؛ لأن ذكر الله تعالى يأتي بأحوال متعددة، فإن كان الإنسان مُسْرِفاً على نفسه، فهو يرجف حين

يذكر الله الذي خالف منهجه ، وإن كان الإنسان يراعى حقَّ الله في كل عمل قدر الاستطاعة ، فلا بُدَّ أن يطمئن قلبه لحظة ذكر الله ؛ لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

إذن : فالخوف أو الوجَل إنما ينشأ من مهابة و سطوة صفات الجلال ، والاطمئنان إنما يجيء من إشراقات وحنان صفات الجمال ؛ ولذلك تجمعهما آية واحدة هي قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ

مَخَشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۗ ﴾ [الزمر]

فالجلود تقشعر خوفاً ووجلاً ومهابةً من الله عز وجل ، ثم تلين اطمئناناً وطمعاً في حنان المنان سبحانه وتعالى ؛ لأن ربنا قال : ﴿ نَبِيٌّ عَبْدِي أَيَّتَـ

أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الحجر]

إذن : فلا يقولنَّ أحدٌ إن هناك تعارضاً بين الوجَل والاطمئنان ، فكلها من ذكر الله بالأحوال المتعددة للإنسان ، فإذا ما وجل الإنسان فهو يتجه إلى فعل الخير فيطمئن .

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد] ، ومعنى الاطمئنان سكون القلب واستقراره وأنسه

إلى عقيدة لا تطفو إلى العقل ليناقضها من جديد .

ونعلم أن الإنسان له حواس إدراكية يستقبل بها المحسّات ، وله عقل

يأخذ هذه الأشياء ويهضمها بعد إدراكها ويفحصها جيداً ، ويتلمس مدى صدقها أو كذبها ، ويستخرج من كل ذلك قضية واضحة يُقيها في قلبه لتصبح عقيدة ؛ لأنها وصلت إلى مرحلة الوجدان المحبّ لاختيار المحبوب .
وهكذا تمرّ العقيدة بعدة مراحل ، فهي أولاً إدراك حسي ، ثم مرحلة التفكير العقلي ، ثم مرحلة الاستجلاء للحقيقة ، ثم الاستقرار في القلب لتصبح عقيدة .

ولذلك يقول سبحانه : ﴿ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد] فاطمئنان القلب هو النتيجة للإيمان بالعقيدة ، وقد يمر على القلب بعض من الأغيار التي تزلزل الإيمان ، ونقول لمن تمر به تلك الهواجس من الأغيار : أنت لم تعط الربوبية حقها ؛ لأنك أنت الملوم في أي شيء ينالك .

فالقلوب تطمئن بالقرآن ، وما فيه من أخبار صادقة تمام الصدق ، لتؤكد أن محمداً ﷺ مبلغ عن ربه ، وأن القرآن ليس من عند محمد ﷺ ، بل هو من عند الله .

وهكذا استقبل المؤمنون محمداً ﷺ وصدقوا ما جاء به ، فها هي خديجة - رضى الله عنه وأرضاها - لم تكن قد سمعت القرآن ، وما أن أخبرها رسول الله ﷺ بمخاوفه من أن ما يأتيه قد يكون جنأ ، فقالت : ((إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، والله ما يُخزيك الله أبداً)) (١) .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . ومعنى (تحمل الكل) أى : تعين المتقل ومنه ==

وها هو أبو بكر - رضى الله عنه وأرضاه - يُصدق أن محمداً رسولاً من الله فوراً أن يُخبره بذلك ، وهكذا نجده ﷺ قد امتلك سماتاً ، وقد صاغ الله لرسوله أخلاقاً ، تجعل مَنْ حوله يُصدّقون كلَّ ما يقول فوراً أن ينطق .

والمؤمن يذكر الله بالخيرات ، ويعتبر من كل ما يمر به ، وبكل ما جاء بكتاب الله ، وحين يقرأ القرآن فقلبه يطمئن بذكر الله ؛ لأنه قد آمن إيمان صدق .

فذكر الله إن جاء بعد المخالفة لا بُدَّ للنفس أن تخاف وتوجل وتضطرب هيبةً لله عزَّ وجلَّ ، أما إن جاء ذكر الله بعد المصيبة أو الشدة ، فإن النفس تطمئن به ، وتأنس لما فيها من رصيد إيماني ترجع إليه عند الشدة ، وتركن إليه عند الضيق والبلاء ، فإن تعرَّضت لمصيبة ، وعزَّت أسبابُ دفعها عليك تقول : أنا لى ربُّ فلتجأ إليه .

ويعطينا الحقُّ سبحانه مثلاً حياً لسرعة استجابة مَنْ آمن بالله لآيات الله ودلائله ، فيقصُّ علينا ما وقع من سحرة فرعون عندما ظهرت لهم الحقيقةُ جليةً أمام عيونهم ، وعلموا وأيقنوا أنهم كانوا فى ضلال وإضلال .

فقد جمع فرعونُ السحرة من المدائن ليغلبوا موسى عليه السلام بسحرهم وينتصروا عليه .

== الإنفاقُ على الضعيف واليتيم والعيال . و (تُكسب المعدوم) أى : تستفيد المالُ المعدوم ، وقد كان النبي ﷺ محظوظاً فى تجارته . و (تَقْرِى الضيف) أى : تطعمه طعام الأضياف . و (نوائب الحق) : حادثات الأيام . انظر : شرح النووى على مسلم (٢ / ٥٦١) ، وفتح البارى للعسقلانى (١ / ٢٤) .

﴿ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ [طه]
 أَلْقُوا ۗ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿١٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي
 نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ [طه]

فقد شعر موسى عليه السلام بالخوف لما رأى حبال السحرة وعصيهم
 تتحول أمام النظارة إلى حياتٍ وطحابين ، وربما اكتفى المشاهدون بما رأوه
 فهرجوا عليه وأنهوا الموقف على هذا قبل أن يتمكن هو من عمل شيء .

لذلك ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ ﴿١٧﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا
 صَنَعُوا ۗ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿١٨﴾ [طه]

لا تخف يا موسى ، فأنت المنصور الفائز فاطمن ، فما كان الحق
 تبارك وتعالى ليرسله ثم يتخلى عنه .

وقد قال له ربه قبل ذلك : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ ﴿١٨﴾ [طه] وقال :
 ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ﴿١٩﴾ [طه] ، فالحق سبحانه يعطى نبيه
 موسى الأوامر ، ويعطيه الحجة لتنفيذها ، ثم يتابعه بعنايته ورعايته .

هكذا كانت الصورة ، فلما خاف موسى ثبته ربه ، وأيده بالحق وبالحجة
 وتابعه فيما يفعل لحظة بلحظة ليوجهه ويعدل سلوكه ، ويشد على قلبه .

فلا تخف لأنى أنا الذى أرسلتك ، وأنا الذى أتولى حمايتك وتأييدك ،
 فأنت معذور فى الخوف إن كنت بعيداً عنى ، فكيف وأنت فى جوارى وأنا
 معك ؟

وها أنذا أخاطبك .

﴿ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ [طه]

فالساحر يرى ما يفعله على حقيقته ، وهم خيلوا لأعين الناس ، لكنهم يرون حبالهم على حقيقتها مجرد حبال ، وعصيهم مجرد عصي ، أما عصا موسى فلم تكن تخيلاً ، بل وجدها السحرة حية حقيقية ، ولقفت بالفعل ما صنعوا ، ولذلك خرّوا ساجدين ، وأعلنوا الإيمان برب موسى وهارون .

هم إذن لم يعلنوا الإيمان بموسى وهارون ، بل أعلنوا الإيمان ﴿ بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ [طه] لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحراً ، بل هو من فعل خالق أعلى .

قال الزجاج (١) في هذا الموقف : عجبٌ أمر هؤلاء ، فقد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، فإذا بهم يلقون أنفسهم للشكر والسجود .

نعم ، لقد دخلوا كافرين فجرةً ، فخرجوا مؤمنين بررة (٢) ؛ لأنهم جاعوا بكل ما لديهم من الكيد ، وجمعوا صفوة السحرة وأسائنته ممن يعلمون السحر جيداً ، ولا تتطلى عليهم حركات السحرة والأعبيهم ، فلما رأوا العصا وما فعلت بسحرهم لم يخالطهم شك في أنها معجزةٌ بعيدة عما يصنعونه من السحر ؛ لذلك سارعوا ولم يترددوا في إعلان إيمانهم بموسى وهارون .

(١) هو : إبراهيم بن السرى بن سهل أبو إسحاق الزجاج ، عالم بالنحو واللغة ، ولد ٢٤١ هـ ، كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو ، أدب القاسم ولد عبيد الله بن سليمان وزير المعتضد العباسي . (الأعلام للزركلي ١ / ٤٠) .

(٢) أورد ابن كثير في تفسيره (٣ / ١٥٨) قول ابن عباس وعبيد بن عمير عن سحرة فرعون : كانوا أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء بررة .

وهذا يدلنا على أن الفطرة الإيمانية فى النفس قد تطمسها الأهواء ، فإذا تَبَقَّظتْ الفطرة الإيمانية ، وأزيلت عنها الغشاوة سارعت إلى الإيمان وتأثرت بها .

لقد سارع السحرة إلى الإيمان ، وكان له هَوَى فى نفوسهم ، بدليل أنهم سيقولون فيما بعد : ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ... ﴾ [طه] فكانوا مكرهين ، كانوا أيضاً مُسَخَّرِينَ ، بدليل قولهم : ﴿ إِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الأعراف]

وقوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَى السِّحْرَةَ سُجُودًا ... ﴾ [طه] ، فرق بين ﴿ فَأَلْقَوْا حَبَاهُمْ وَعَصِيهِمْ ... ﴾ [الشعراء] وهذا منهم عمل اختيارى ، وبين ﴿ فَأَلْقَى السِّحْرَةَ سُجُودًا ... ﴾ [طه] يعنى : على غير اختيارهم ، وعلى غير إرادتهم ، كأن صَوْلَةَ الحق فاجأت صحوة الفطرة ، فلم يملكوا إلا أن خرُّوا لله ساجدين ، فالإلقاء هنا عمل تلقائى دون تفكير منهم ، ودون شعور ، فقد فاجأهم الحق الواضح والمعجزة الباهرة فى عصا موسى ؛ لأنها ليست سحراً ، فهم أعلمُ الناس بالسحر .

ونلاحظ فى هذه الآية أنها جاءت بصيغة الجمع : ألقى السحرة ، قالوا آمناً ، لتدل على أنهم كانوا يداً واحدة ، لم يشذَّ منهم واحد ، مما يدل على أنهم كانوا مكرهين مُسَخَّرِينَ .

والإلقاء يدل على سرعة الاستجابة ، وأن السجود تمَّ منهم دون تفكير ؛

لأنه أمرٌ فوق إرادتهم ، وكان جلالَ الموقف وهيبته وروعة ما رأوا ألقاهم على الأرض ساجدين لله ، صاحب هذه الآية الباهرة ، لذلك لم يقولوا عندها أمنا برب موسى وهارون ، إنما قالوا : ﴿ قَالُوا ءَأَمْنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء]

وهم ما سجدوا إلا عن إيمان واثق ينجلي معه كلُّ شك ، إيمان خطف ألبابهم ، وألقاهم على الأرض ساجدين لله ، حتى لم يمهلهم إلى أن يعلنوا عنه لقد أعادهم إلى الفطرة الإيمانية في النفس البشرية ، والمسائل الفطرية لا علاج للفكر فيها .

ومن آيات الله التي لا بُدَّ أن يقف عندها المؤمنون ويتأملوها ويتفكروا فيها ، ويسجدوا لله عزَّ وجلَّ مُوجدها ومُنشئها في هذا الكون ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف]

وهكذا يلفتنا الله جلَّ جلاله إلى آياته التي في السماوات والأرض لنعملَ فيها العقل والإدراك ، لنستنبطَ منها ما يعطينا الحضارة ، إن القرآن يطالبنا بأن نواصل العلم الذي علَّمه الله لآدم ، وإذا كان تاريخُ العلوم يحمل لنا أخباراً عن قوم لم يكونوا مؤمنين ، ومع هذا سبقونا في العلم والاستنباط ، فكان الواجب علينا نحن المؤمنين أن نتأمل آيات الله تعالى في الأرض .

﴿ قُلِ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيٰتُ وَالنُّذُرُ عَن

[يونس]

قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

إن لهذا العالم خالقاً قادراً ، إنها قوياً ، أمناً به ، ورأينا جميل صنعه
فى السماء والكواكب ، وأعجبنا بدقة نظام سير تلك الكواكب .

ونرى التوقيت الدقيق لظهور الشمس والقمر ومواعيد الخسوف الكلى
أو الجزئى ، ونُبهر بدقة المنظم الخالق سبحانه وتعالى ، ولن نجد زحام
مرور بين الكواكب يعطل القمر ، أو يعطل الأرض ، ولن يتوقف كوكب ما
لنفاد وقوده ، بل كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ
تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس]

وحين تتأمل السماوات والأرض تجد فى الأرض جبلاً شامخة ، وتمر
عليها فتدهش من دقة التكوين ودقة التماسك ، وتجد فى داخلها نفائس ومعادن
بدرجات متفاوتة ، وقد تجد أسطح الجبال مكوّنة من مواد خصبة بشكل هشّ ،
فإذا ما نزل عليها المطر ، فهو يصحبها معه إلى الأرض ، لأنها تكون
مجرد ذرات كذرات برادة الحديد ، وتتخلل الأرض التى شققته حرارة
الشمس .

ولو أن الجبل كلها كانت هشة التكوين ، لأزالها المطر مرة واحدة ،
وجعلها مجرد مسافة نصف متر مضاف لسطح الأرض ، ولاختفى الخصب
من الأرض بعد سنوات ، لكن شاء الحق سبحانه أن يجعل الجبال متماسكة ،
وجعل سطحها فقط هو الهش لينزل المطر فى كل عام مرة ، ليحمل الخصب
إلى الأرض .

وما دام الحق — سبحانه وتعالى — قد قال : (يعقلون) فى مجال
النظر فى السماوات والأرض ، فهذه دعوة لتأمل عجائب السماوات

والأرض. ومن تلك العجائب أن الجبال الشاهقة لها قمة ولها قاعدة ، مثلها مثل الهرم ، وتجد الوديان على العكس من الجبال ؛ لأن الوادى يكون بين جبلين ، وتجد رأس الوادى فى أسفله ، ورأس الجبل فى قمته .

وحين ينزل المطرُ فهو يمرُّ برأس الجبل الضيق ، ليصل إلى أسفل قاع الوادى الضيق ، وكلما نزل المطر فهو يأخذ من سطح الجبل ، ليملاً مساحة الوادى المتسعة ، وكلما ازداد الخلق ، زاد الله سبحانه رقة الاقتيات .

ومثال ذلك تجده فى الغرين الطمى القادم من منابع النيل ، لياتى إلى وادى النيل والدلتا ، وكانت هذه الدلتا من قبل مجرد مستنقعات مالحة ، وشاء لها الحق سبحانه أن تتحوّل إلى أرض خصبة .

وحين نتأمل ذلك نرى أن كل شيء فى الكون قد أوجده الحق سبحانه بحساب ، والذى يفسد الكون هو أننا لا نقوم بتكثير ما تكاثر ، بل ننتظر إلى أن تزدحم الأرض بمن عليها ، ثم نفكر فى استصلاح أراضٍ جديدة ، وكان يجب أن نفعل ذلك من قبل .

وكلما نزل المطر على الجبال فهى تتخلخل وتظهر ما فيها من معادن يكتشفها الإنسان ، ويعمل عقله فى استخدامها .

والمؤمن حين يرى ذلك يزداد إيماناً ، وكلما طبق المؤمن حكماً تكليفاً مأموراً به ، يجد نور الإيمان وهو يشرق فى قلبه .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ^ع

وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٤﴾ [يونس] ، والكون كله

أمامهم، فلماذا لا ينظرون؟ إنهم يُبصرون ولا يستبصرون، مثل الذى يسمع ولا يسمع.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قُلِ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس]

إنن : فعدم إيمانهم أفقدهم البصيرة والتأمل .